٤٤/ ٢/ ٢/ ٨٩

الآداب الأجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد 115 صيف 2003 السنة الثامنة و العشرون

المدير المسؤول

د.علي عقلة عرسان

رئيسة التحرير :

د.بثينة شعبان

أمينة التحرير :

د.ناديا خوست

هيئة التحرير :

- عدنان جاموس
- لطيفة ديب
- خالد حداد
- رفعت عطفة

إعادة النظر في الاستشراق

بقلم: ادوارد سعيد

■ ترجمة: ثائر ديب ■

" عن الإنكليزية"

تتبع المشكلات التي أودُّ تناولها من القضايا العامة التي سبق أن تناولتها في الاستشراق. وأهمّها: تمثيل الثقافات، والمجتمعات، والتواريخ الأخرى؛ والعلاقة بين القوة والمعرفة؛ ودور المثقف؛ والمسائل المنهجية المرتبطة بالعلاقة بين أنواع النصوص المختلفة، وبين النصّ والسياق، وبين النصّ والتاريخ.

وعليَّ، بدايةً، أن أوضح أمرين. أولهما، هو أنني لا أستخدم كلمة "الاستشراق" للإشارة إلى كتابي بقدر ما أستخدمها للإشارة إلى المشكلات التي ارتبط بها ذلك الكتاب، خاصةً أنني سأُعنى بذلك النطاق الفكري والسياسي الذي غطّاه الاستشراق (الكتاب) وما قمت به من أعمال بعد صدوره على حدٍّ سواء. أمّا ثانيهما، فهو أنني لا أريد أن يُظَّن أنَّ هذه محاولةٌ للردّ على منتقديَّ. فلقد أثار الاستشراق قدراً كبيراً من التعليق، أكثره إيجابيّ وبنّاء، وقسْطٌ منه معادٍ بل وبذيء في بعضِ الحالات. وواقعَ الأمر أنني لم أهضم أو أفهم كلَّ ما كُتِبَ أو قيل. لكنني التقطتُ، عوضاً عن ذلك، تلك المسائل التي طرحها منتقديَّ وبدت لي مفيدةً في

التوصّل إلى نقاشٍ مُركَّز. أمّا الملاحظات الأخرى، كاستبعادي للاستشراق الألماني، الذي لم يقدّم لي أحد أيَّ سبب لأن أضمّه، فقد بدت لي صراحةً ملاحظات سطحية وتافهة، فلا أجد مبرراً للردّ عليها. وبالمثل، فإنَّ الزعم الذي أطلقه بعضهم، بأنني لا تاريخي ومفتقر إلى التماسك، كان ليكتسي مزيداً من الأهمية لو أنَّ فضائل التماسك، كائناً ما كان المقصود بهذا المصطلح، قد أُخضِعَت لتحليلٍ صارم؛ أمّا بالنسبة للا تاريخيتي، فهذه أيضاً تهمة وزن تأكيداتها أثقل من وزن براهينها.

معروفٌ أنَّ الاستشراق، بوصفه نطاقاً من الفكر والخبرة، يشتمل على العديد من الأوجه المتداخلة: أولها، تلك العلاقة التاريخية والثقافية المتغيّرة بين أوروبا وآسيا، والتي ترجع في التاريخ إلى 4000 عام؛ وثانيها، ذلك الفرع العلمي الذي بدأ في الغرب منذ أوائل القرن التاسع عشر، وراح يتخصّص المرء على أساسه في دراسة الثقافات والتراثات الشرقية المختلفة؛ وثالثها، تلك الافتراضات الإيديولوجية، والصور، والاستيهامات المتعلّقة بمنطقةٍ من العالم تُدْعى الشرق. والقاسم المشترك بين أوجه الاستشراق الثلاثة هذا هو الخطّ الذي يفصل الغرب عن الشرق، والذي لا يمثّل، كما سبق أن رأيت، واقعةً من وقائع الطبيعة بقدر ما يمثّل واقعةً من نتاج البشر، كنت قد أسميتها بالجغرافيا التخيّلية. وما يعنيه ذلك هو أنَّ الانقسام بين الشرق والغرب ليس بالثابت الذي لا يتغيّر، كما أنّه ليس مجرّد اختلاف أو تخييل. ما يعنيه ــ يقيناً ــ هو أن الشرق والغرب، شأن جميع الأوجه فيما دعاه فيكو عالم الأمم، هما واقعتان من نتاج البشر، وبذا تتوجّب دراستهما كعنصرين مكوّنين من عناصر العالم الاجتماعي، وليس العالم الإلهي أو الطبيعي. ولأنَّ العالم الاجتماعي يشتمل على الشخص أو الذات التي تضطلع بالدراسة فضلاً عن الموضوع أو الميدان المدروس، فلابدّ من إدراجهما كليهما في كلّ تناول للاستشراق. ومن الواضح كفايةً أنَّ الاستشراق ما كان ليوجد لولا وجود المستشرقين، من جهة أولى، ووجود الشرقيين، من جهة ثانية.

وحقيقة الأمر، أنَّ هذه واقعة أساسية بالنسبة لأيّة نظرية في التأويل. غير أنّه لا يزال هنالك إحجام لافت عن مناقشة مشكلات الاستشراق في السياقات السياسية أو الأخلاقية أو حتى الأبستمولوجية التي تلائمه وتقترن به. وهذا ما يصحّ على

نقّـاد الأدب المتخصّصـين الذيـن كتبوا عن كتابي كما يصحّ على المستشرقين أنفسـهم. وإذْ يـبدو لـي أنّ من المستحيل تماماً أن نغفل حقيقة الأصل السياسي للاستشـراق وراهنيته السياسية المتواصلة، فإننا مجبرون استناداً إلى أسس فكرية وسياسـية معـاً لأن نستقصـي ما تواجهه سياسات الاستشراق من مقاومة، تلك المقاومة التي تمثّل على وجه الدقّة عَرَضاً من أعراض ما يتمّ إنكاره.

وإذا مـا كانت المجموعة الأولى من المسائل معنيّة بمشكلات الاستشراق إذْ يُعـاد فيه النظر من زاوية قضايا محدودة وموضعية مثل من الذي يدرس الشرق ويكتـب عنه، وفي أية أوضاع مؤسساتية أو خطابية، ولأيّ جمهور، ولأية غايات متوخّاة، فإنّ المجموعة الثانية من المسائل تمضي بنا إلى دائرة من القضايا أوسع وأعـرض. وهي قضايا تُطْرَح بادئ ذي بدء من طرف المنهجية. وتُعَمَّق إلى حدّ بعيد بأسئلة كالسؤال كيف لإنتاج المعرفة أن يخدم على أفضل وجه غايات جماعية لا غايـاتٍ فـئوية أو طائفية؛ وكيف يمكن إنتاج معرفة غير هيمنية أو قهرية في وضعٍ مُحوَّطٍ بسياسات القوة، واعتباراتها، ومواقفها، واستراتيجياتها. ولسوف أُلْمِعُ عامداً، في هذه الضروب المنهجية والأخلاقية من إعادة النظر في الاستشراق، إلى قضايا مشابهة طرحتها تجارب النسوية أو دراسات النساء، والدراسات السوداء أو الإثنية، والدراسات الاشتراكية والمناهضة للإمبريالية، حيث تنطلق جميعاً من حقّ جماعاتٍ بشرية لم تُمثّل من قبل أو أُسيء تمثيلها في أن تعبّر عن نفسها وأن تمثّل نفسـها في ميادين جرى تحديدها، سياسياً وفكرياً، بحيث تعمل بصورة عادية على إقصـائها، واغتصـاب وظائفهـا الدلالـية والتمثيلية، وطمس واقعها التاريخي. وباختصار، فإنّ إعادة النظر في الاستشراق من هذا المنظور الواسع والتحرّري لا يمكن أن ترضى بأقلّ من خلق موضوعاتٍ لنوعٍ جديد من المعرفة.

فلنعد إلى تلك المشكلات المحدودة والموضعية التي ذكرتها أولاً. فأمر التفهّم اللاحـق الذي يتفهّم به الكتّاب الأشياء بعد وقوعها لا يقتصر على إثارة إحساسهم بالـندم على ما كان بمقدورهم أن يقوموا به أو كان من الواجب أن يقوموا به ولم يفعلـوا، بـل يوفّر لهم أيضاً منظوراً أوسع لِلإحاطة بما فعلوه. وفي حالتي، فقد أعانني على التوصّل إلى هذا التفهّم الواسع كلّ من كتبوا عن كتابي، ونظروا إليه ـ فـي جمـيع الأحـوال ـ علـى أنّه جزء من الجدالات الجارية، والتأويلات

المتـــنازعة، والصراعات الفعلية في العالم العربي ــ الإسلامي، على النحو الذي يتفاعل فيه هذا العالم مع الولايات المتحدة وأوروبا. وفي حالتي الأشدّ تحديداً، فإنّ الوعي بأنني شرقي يعود إلى شبابي في فلسطين ومصر الكولونياليتين، على الرغم مـــن أنّ الدافـــع لمقاومة التأثيرات السلبية المرافقة لهذا الوعي قد تنامى في مناخ الاســـتقلال ما بعد الحرب العالمية الثانية حين عملت القومية العربية، والناصرية، وحـــرب 1967، ونهـــوض الحركة الوطنية الفلسطينية، والحرب الأهلية اللبنانية، والثورة الإيرانية بعواقبها الرهيبة، على خلق تلك السلسلة غير العادية من التقلّبات صعوداً وهبوطاً والتي لم تنته ولم تُتِح لنا أن نفهم فهماً كاملاً ما كان لها من تأثير ثـــوري لافت. فمن الصعب أن نحاول فهم منطقة من العالم تبدو سماتها الأساسية في حالٍ من التغيّر والتقلّب الدائم، ولا يُتاح لكلّ من يحاول الإحاطة بها أن يقف، بفعـــل الإرادة المحضـــة أو الفهـــم المتسيّد، في نقطةٍ أرخميدية خارج هذا التغيّر والتقلـــب. ومـــا يعنـــيه هذا هو أنّ السبب ذاته الذي يدفع إلى فهم الشرق عموماً، والعالم العربي خصوصاً، قد كان، أولاً، من ذلك النوع الذي يتملّك المرء، ويأسر اهـــتمامه ويلحّ عليه، سواء لأسباب اقتصادية، أو سياسية، أو ثقافية، أو دينية، كما كان، ثانياً، من ذلك النوع الذي يتحدّى التعريف المحايد، أو المتجرّد، أو المستقر.

والحال، أنّ مشكلات مشابهة تشيع في تأويل النصوص الأدبية. وعلى سبيل المثال، فإنّ كلّ عصر من العصور يعيد تأويل شكسبير، ليس لأنّ شكسبير يتغيّر، بـــل لأنّـــه لا وجود لموضوعٍ ثابت وقيّم كموضع شكسبير بمعزلٍ عن محرّريه، والممثليـــن الذيـــن لعـــبوا الأدوار التي كتبها، والمترجمين الذين نقلوه إلى لغاتٍ أخرى، ومئات ملايين القرّاء الذين قرأوه أو شاهدوا عروض مسرحياته منذ أواخر القـــرن السادس عشر، وذلك على الرغم من وجود عدد هائل من طبعات شكسبير الموثوقـــة. وبالمقـــابل، فإنّ من المبالغة القول إنّ لا وجود مستقلاً لشكسبير البتّة، وإنه يخضع لإعادة بناء كاملة في كلّ مرّة يُقدِمُ فيها أحدٌ ما على قراءته، أو تمثيله، أو الكـــتابة عنه. فحقيقة الأمر أنّ شكسبير يعيش حياةً مؤسساتية أو ثقافية أسهمت من بين أشياء أخرى في ضمان علوّ كعبه كشاعرٍ عظيم، وكمؤلّفٍ لما ينوف على الثلاثيـــن مســـرحية، وكحائـــزٍ ســـلطات اســـتثنائية في الغرب من حيث اعتماده وتكريســـه. والأمر الذي أبسطه هنا هو أمر أولي وبدئي: حتى الموضوع الخامل

نسبياً مثل النص الأدبي يُفتَرَض عموماً أن يستمدّ شيئاً من هويته من لحظته التاريخية متفاعلةً مع اهتمامات قرّائه، وأحكامهم، وبحثهم، وأداءاتهم. غير أنَّ مثل هذا الامتياز نادراً ما يُتاح للشرق، أو العرب، أو الإسلام، هذه الموضوعات التي يَفتَرِضُ بها التيار السائد في الفكر الأكاديمي أن تظل، سواء معاً أم كلّ على حدة، حبيسة ذلك الوضع الثابت لموضوعٍ جمّدته تحديقة المراقبين الغربيين مرّة وإلى الأبد فلا يمرّ عليه الزمن.

وبعيداً عن الدفاع عن العرب أو الإسلام ــ كما فهم الكثيرون كتابي ــ فقد كانت رؤيتي أنَّ أيّاً من هذين التعيّنين ما كان ليوجد إلا بوصفه "جماعات تأويل"، وأنَّ كلاً منهما قد مثّل، شأن الشرق ذاته، مصالح، ومزاعم، ومشاريع، ومطامح، وضروباً من البلاغة التي لم تقتصر على كونها في تنازعٍ عنيف وحسب، بل تعدّت ذلك إلى دخولها في حالة حربٍ مفتوحة. وبذا فإنَّ لصاقات أو نعوتاً مثل "العربي" أو "المسلم" بوصفها تقسيماتٍ فرعية من "الشرق" قد أُترِعت بالمعاني وأُفرِطَ في تحديدها التاريخ، والدين، والسياسة حتى بات من المتعذّر اليوم على أحد أن يستخدمها دون انتباه إلى التوسّطات الخلافية الهائلة التي تلقي بستار على الموضوعات التي تشير إليها تلك اللصاقات والنعوت، وذلك إذا ما وُجِدَت هذه الموضوعات أصلاً.

وكلما كانت مثل هذه الملاحظات صادرة عن طرفٍ أو فريق معيّن، كلما تزايد إنكارها في العادة من قبل طرف أو فريق آخر. وكل من يحاول الإشارة إلى أنَّ ما من شيء فوق ميدان التأويل أو خارجه، بما في ذلك أيّ تصنيف وصفيّ بسيط، فمن المؤكد تقريباً أن يجد خصماً يقول له إنَّ ما يُبْتَغى من العلم والتعلّم هو التعالي على أهواء التأويل وتقلّباته، وإنَّ من الممكن التوصّل إلى الحقيقة الموضوعية في واقع الأمر. ومثل هذا الزعم لم يكن مجرد زعم سياسي طفيف حين استُخدِم ضدَّ الشرقيين الذين شككوا بسلطة وموضوعية استشراقٍ مرتبط على نحوٍ صميمي مع تلك الكتلة الكبرى من المستوطنات الأوروبيةً في الشرق. والحال، أنَّ ما قلته في الاستشراق كان في جوهره قد قيل من قَبْل على لسان أ. ل. طيباوي، وعبد الله العروي، وأنور عبد الملك، وطلال أسد، وس. هـ. العطّاس، وفرانز فانون، وإيميه سيزار، وسردار ك. م. بانيكار، وروميلا ثابار،

ممّــن عــانوا جميعاً ضروب النهب والتخريب الإمبرياليين والكولونياليين، وممّن عملوا، في تحدّيهم سلطة العلم الذي مثّلهم لأوروبا ومؤسساته ومصدره، على فهم أنفسهم بما هو أكبر ممّا قاله ذلك العلم عنهم.

وتحدّي الاستشراق، والحقبة الكولونيالية التي شكّل جزءاً عضوياً منها، كان تحدّياً لِلْخَرَس المفروض على الشرق بوصفه موضوعاً. فبقدر ما كان الاستشراق علمــاً للإدماج والاحتواء أُسِّسَ من خلاله الشرق ثُمَّ أُدْخِلَ إلى أوروبا، كان أيضاً حــركة علمــية يناظرها في عالم السياسية قيام أوروبا بمراكمة الشرق وحيازته الكولونياليــة. ولــذا لم يكن الشرق مُحاوِر أوروبا، بل آخرها الصامت. ولقد غدا تــاريخ الشرق، منذ نهاية القرن الثامن عشر تقريباً، حين اكتشفت أوروبا الشرق، غــدا نموذجاً وأمثولة للقِدَم والأصالة، وهما الوظيفتان اللتان جذبتا اهتمام أوروبا بأفعــال التعرّف والاعتراف لكنها ما لبثت أن ابتعدت عنهما حين بدا أنّ تطورها الصناعي، والاقتصادي، والثقافي يترك الشرق بعيداً خلف ظهره. ولقد أفاد تاريخ الشرق ــ عند هيغل، وماركس، ثمّ عند بوركهارت، ونيتشه، وشبنغلر وسواهم من فلاســفة الــتاريخ الكبار ــ في تصوير منطقة مُغرِقة في القدم، وينبغي تجاوزها ووضــعها وراء الظهر، أمّا مؤرّخو الأدب فذهبوا بعيداً في رصد جميع ضروب الكــتابة الجمالية والصور المجازية حتى صار بمقدورنا أن نجد، في أعمال كيتس وهولدرليــن مــثلاً، مساراً "تغريبياً" يرى أنّ الشرق قد تخلّى عن عظمته السابقة وأهميــته التاريخــية لِــتَرِثَهَا الروح العالمية الميمّمة شطر الغرب بعيداً عن آسيا صوب أوروبا.

لقد انحسرت حقيقة الشرق، بوصفه حالةً بدائيةً، والنمطَ النقيضَ لأوروبا منذ أبــد الآبديــن، والليلَ الخصيبَ الذي ولدت منه العقلانية الأوروبية، انحسرت بلا هــوادة مــتحولةً إلــى نوعٍ من المستحاثات النموذجية. وانطلاقاً من هذا الفارق الجــذري، كــان أن تشــكّلت أصــول الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا الأوروبيتين، وبحــدود علمي فإنّ الأنثروبولوجيا، بوصفها فرعاً علمياً، لم تعنَ بعد بهذا التقييد السياسي الموروث الواقع على كونيتها النزيهة المزعومة. وهذا أحد الأسباب التي تجعل كتاب يوهانز فابيان، <u>الزمن والآخر: كيف تشكّل الأنثروبولوجيا موضوعها</u>، كتاباً فريداً ومهمّاً على حدٍّ سواء. ولو قورن، مثلاً، بما قدّمه كليفورد غيرتز بشأن

الدوائـــر التأويلـــية مـــن تسويغات عقلانية معيارية ومنضبطة وكليشيهات مُطْرِية لذاتهـــا، لـــبدا الجهـــد الجـــدّي الذي بذله فابيان مرموقاً أكثر من حيث لفته انتباه الأنثروبولوجيين إلى ضروب التنافر في الزمن، والقوة، والتطور بين الإثنوغرافي وموضـــوعه المـــتكوّن. وفي الأحوال جميعاً، فإنَّ ما أُسقِطَ من الاستشراق كفرع علمـــي كـــان علـــى وجـــه التحديد ذلك التاريخ الذي قاوم تجاوزاته الإيديولوجية والسياســـية، ذلـــك التاريخ المقموع والمقاوِم الذي عاود الظهور من جديد في تلك الانتقادات والهجمات التي تشنُّ على الاستشراق، بوصفه علم الإمبريالية.

بـــيد أنَّ الشّـــقّة بيـــن الانتقادات الكثيرة التي تُوَجَّه للاستشراق كإيديولوجيا وممارسة هي شقّة واسعة. فبعضهم يهاجم الاستشراق كمقدمة للتأكيد على فضائل هـــذه الـــثقافة المحلية أو تلك: وهؤلاء هم أصحاب النزعة المحلية. وبعضهم ينتقد الاستشـــراق فـــي سياق الوقوف في وجه الهجمات على هذا المذهب السياسي أو ذاك: وهـــؤلاء هـــم أصحاب النزعة القومية أما بعضهم الآخر فينتقد الاستشراق بســـبب تشويهه طبيعة الإسلام: وهؤلاء، عموماً، هم المؤمنون. ومن جهتي، لن أقـــوم بالحكم بين هذه الآراء، باستثناء القول إنني قد تفاديت اتخاذ المواقف بشأن مسائل مثل طبيعة العالم الإسلامي أو العربي الفعلي، أو الحقيقي أو الأصيل. غير أننـــي أرى أنّ ثمّـــة أمريـــن يحظيان بأهمية خاصة، بالارتباط مع كلّ الانتقادات الحديثة التي وجِّهَت للاستشراق. أولهما، هو الاحتراس المنهجي الذي لا يرى في الاستشراق فرعاً علمياً وضعياً بقدر ما يرى فيه فرعاً نقدياً وبذا يخضعه لتمحيص شـــديد، وثانيهما، هو العزم على عدم السماح بأن يتواصل عزل الشرق واحتجازه دونما تحدٍّ، ولقد قادني فهم هذا الأمر الثاني إلى أن أرفض رفضاً قاطعاً توصيفات مثل "الشرق" و"الغرب".

وتـــبعاً للطـــريقة التـــي يرون فيها إلى أدوارهم كمستشرقين، فإنَّ <u>نقّاد نقّاد</u> الاستشـــراق قـــد عمـــدوا إمـــا إلى تعزيز تأكيداتهم على ما ينطوي عليه خطاب الاستشـــراق من قوّة وضعيّة، أو إلى الدخول مع نقّاد الاستشراق في حوار فكري أصيل، مع أنَّ هذه الحالة الثانية هي الأقلّ شيوعاً للأسف. أمّا أسباب هذا الانقسام فهـــي أســـباب واضحة وجليّة: فبعضها يتعلّق بالسلطة والعمر، فضلاً عن الميل الدفاعـــي المؤسساتي أو المهني؛ وبعضها يتعلّق بالقناعات الدينية أو الإيديولوجية.

غير أنَّ هذه الأسباب جميعاً هي أسباب سياسية، الأمر الذي لا يجد الجميع أنَّ من السهل الاعتراف به. وإذا ما كان لي أن أستخدم نفسي كمثال، فإنّه في حين وافق بعض النقّاد على المنطلق الأساسي في سجالي، إلاّ أنّهم واظبوا على الميل إلى امتداح ما أسماه مكسيم رودنسون "orientaliste"la science أو "العلم الاستشراقي". وهذه رؤية مكتفية بخدمة ذاتها والانغماس في شنّ الهجمات على نزعة ليسنكوية مزعومة كامنة في جدالات المسلمين والعرب الذين يحتجّون على الاستشراق "الغربي"، حيث أُطْلِقَت هذه التهمة المنافية للعقل على الرغم من حقيقة أنَّ جميع نقّاد الاستشراق المُحْدَثين قد نمّوا عن صراحة تامة بشأن استخدامهم تلك الانتقادات "الغربية" كالماركسية أو البنيوية في محاولة لتخطّي ضروب التمييز المؤذية بين الشرق والغرب، بين الحقيقة العربية والحقيقة الغربية، وما إلى ذلك.

ولأنَّ الهجمات العنيفة التي شُنَّت على هذا العلم المهيب الذي كان حصيناً في السابق قد أدّت إلى استثارة حساسية الكثير من حملة الشهادات المتخصصين بدراسة العرب والإسلام، فقد أنكر هؤلاء ارتباطهم بأية سياسة مهما تكن، وذلك في الوقت الذي راحوا يدفعون فيه بهجوم إيديولوجي معاكس متعمَّد وعنيف. وعليَّ هنا أن أذكر قلّة من الافتراءات النمطية التي أثيرت ضدي بحيث يمكن لكم أن تروا إلى الاستشراق وهو يوسّع سجالاته التي طرحها في القرن التاسع عشر كيما تطاول مجموعةً متباينةً من وقائع أواخر القرن العشرين. وهذه الافتراءات مستمدّة جميعها ممّا كان يبدو لعقلية القرن التاسع عشر على أنّه موقف مناف للعقل إذْ يقوم شخص شرقي بالردّ على ضروب القطع والجزم التي يقدّمها الاستشراق. ونظراً لما يبديه برنارد لويس من عداء منفلت تجاه النزعة العقلية، دون أن يعوقه عن ذلك أي وعي ذاتي نقدي، فإنَّ أحداً لم يبلغ ما بلغه لويس من ثقة رفيعة بالنفس. وإنَّ تعداد مآثره التي تكاد أن تكون سياسية صرفاً ليحتاج من الوقت أكثر مما تستحقّ هذه المآثر. ففي سلسلة من المقالات وكتاب واحد شديد الضعف ــ هو <u>اكتشاف المسلمين أوروبا</u> ــ استغرق لويس في الردّ على رؤيتي، مؤكّداً أنَّ السعي الغربي وراء معرفة المجتمعات الأخرى هو سعي فريد، وأنَّ باعثه هو الفضول المحض، وأنَّ المسلمين، بالمقابل، لم يكونوا قادرين على معرفة أوروبا ولا مهتمين بنَيْلِ هذه المعرفة، كأنّ معرفة أوروبا هي المعيار الوحيد المقبول

للمعرفة الحقّة. ويُقدّم لويس سجالاته على أنّها نابعة من حياد الباحث غير المسيَّس على وجه الحصر، وذلك في الوقت الذي يُعَدُّ فيه على نطاقٍ واسع إماماً لتلك الحملات الصليبية المعادية للإسلام، والمعادية للعرب، تلك الحملات الصهيونية، المُسخَّرة لخدمة أغراض الحرب الباردة، تلك الحملات التي يضمن كلاً منها تعصّبٌ متلفّح بمسحة من المدنية ذات صلة واهية للغاية بـ"العلم" والتفقّه الذي يزعم لويس حمل لوائه.

أمّا المُؤَدْلَجون والمستشرقون الأصغر سناً مثل دانييل بايبيس فهم ليسوا على ذلك القدر كلّه من النفاق، لكنهم ليسوا أقلّ ابتعاداً عن الروح النقدية. فسجالات بايبيس، كما تتجلّى في كتابه في سبيل الله: الإسلام والسلطة السياسة، لا تبدو مُسَخَّرةً لأغراض المعرفة بل لخدمة دولة عدوانية وتدخّلية هي الولايات المتحدة التي يُسهِم بايبيس في تحديد مصالحها. ويتحدث بايبيس عن فوضى الإسلام، وإحساسه بالدونية، ونزعته الدفاعية، كأنّ الإسلام ذلك الشيء الواحد البسيط، وكأنّ ما يتميزّ به بايبيس من غياب الأدلة أو اتسامها بالانطباعية أمر ذو أهمية ثانوية جداً. وكتاب بايبيس دليل على مرونة الاستشراق الفريدة، وعلى انعزاله عن التطورات الفكرية في جميع الميادين الثقافية الأخرى، وعلى غطرسته البالية في إطلاق ضروب الجزم والقطع مستخفاً بالمنطق والحجّة. وإنني لأشكّ في أن يعمد أيّ خبير في أيّ مكان في الدنيا إلى الحديث اليوم عن اليهودية أو المسيحية بمثل هذا الخليط من القوة والانفلات اللذين يسمح بهما بايبيس لنفسه في الحديث عن الإسلام. وإنّ المرء ليتوقّع من كتابٍ عن الصحوة الإسلامية أن يُلمِحَ إلى تطورات مشابهة ومتعالقة في ضروب الانبعاث الديني في لبنان، وإسرائيل، والولايات المتحدة، على سبيل المثال. ثم أين نجد أحداً في أيّ مكان يمكن أن يكتب عن مادة لا برهان عليها، كما يقول، سوى "الإشاعة والقيل والقال، وحفنة من الأدلة الأخرى"، ثم لا يلبث في الفقرة ذاتها وبضربٍ من الخيمياء أن يحوِل الإشاعة والقيل والقال إلى "وقائع" يعتمد على "وفرتها" في "التقليل من أهمية كل منها". إنّ هذا لَسِحْرٌ من النوع الذي لا يجدر حتى بأعتى ضروب الاستشراق أن يمارسه، وإذا ما كان بايبيس ينحني إجلالاً للاستشراق الإمبريالي، فإنّه لا يحوز شيئاً من تفقّهه الأصيل ولا من قدرته على ادّعاء الحياد. فالإسلام عند بايبيس أمر متقلّب وخطير، وحركة سياسية تتدخّل في شؤون الغرب وتبذر الاضطراب فيه، كما

تحرّض على العصيان والتعصّب في كلّ مكان آخر.

وجوهر كتاب بايبيس لا يقتصر على إحساسه النفعي الشديد بما له من أهمية سياسية بالنسبة لأميركا ريغان، حيث يندمج الإرهاب والشيوعية في الصورة التي ترسمها وسائل الإعلام للقتلة، والمتعصّبين، والمتمردين المسلمين، بل يتعدّى ذلك إلى أطروحته التي مفادها أنّ المسلمين أنفسهم أسوأ مصدر لتاريخهم. وصفحات في سبيل الله تعجّ بالإشارات إلى عجز الإسلام عن تمثيل ذاته، أو فهم ذاته، أو وعي ذاته، كما تعجُّ بمديح شهود مثل ف. س. نايبول ممن هم في زعمه أشدّ نفعاً وذكاءً في فهم الإسلام. وهذه، بالطبع، هي الثيمة الأكثر شيوعاً بين ثيمات الاستشراق: إنهم عاجزون عن تمثيل أنفسهم، ولذا لابدّ أنّ يمثّلهم آخرون يعرفون عن الإسلام أكثر مما يعرف الإسلام عن نفسه. والحال، أنّه غالباً ما يمكن للآخرين معرفة المرء بطرائق تختلف عن معرفته لنفسه، الأمر الذي يمكن أن يولّد تبصّرات مهمّة وقيّمة. غير أنّ ذلك مختلف تماماً عن إعلان قانون ثابت مفاده أنّ الخارجيين بطبيعتهم أحسن إحساساً بك أنت الداخلي منك بنفسك. ولنلاحظ أنّ لا وجود لدى بايبيس لأيّ تفاعل بين آراء الإسلام وآراء الخارجيّ: لا حوار، لا نقاش، ولا اعتراف متبادل. ليس ثمة سوى التأكيد السهل على تلك المنزلة الرفيعة التي يحوزها صانع السياسة الغربي، أو خادمه الأمين، بفضل كونه غربياً، وأبيض، وغير مسلم.

أشهد أنّ هذا ليس بالعلم، ولا المعرفة، ولا الفهم: إنّه استعراض قوة وادّعاء سلطة مطلقة. وهو مؤسَّس على العنصرية، ومزوَّد بما يجعله مستساغاً نسبياً لدى جمهور أُعِدَّ مسبقاً للإصغاء إلى حقائقه مفتولة العضلات. فبايبيس يتحدث إلى، ومن أجل، قطاع واسع من الزبائن الذين لا يرون في الإسلام ثقافةً بل شيئاً بغيضاً مسبّباً للإزعاج؛ ومعظم قرّاء بايبيس سيقرنون، في أذهانهم، بين ما يقوله عن الإسلام وبين تلك الأشياء البغيضة التي شهدتها الستينيات والسبعينيات، كالسود، والنساء، وأمم العالم الثالث التي أمالت الكفّة لغير صالح الولايات المتحدة في أماكن مثل اليونسكو والأمم المتحدة، فاستحقوا على ذلك توبيخ السيناتور موينيهان والسيدة كيركباتريك. وعلاوةً على ذلك، إنّ بايبيس هو مثال مجسَّد للجهل المُبَرْمَج، شأنه في ذلك شأن أرتال من المستشرقين والخبراء ممن يحملون العقلية

ذاتهـــا ويمـــثّلهم بوصـــفه القاسم المشترك. فبدل أن يحاول فهم الإسلام في سياقٍ الإمبريالـــية وثورة جزء من البشرية يشترك في تعرّضه للإساءة لكنه يتباين كثيراً فـــيما بيـــنه، وبـــدل الإفادة من الأعمال الحديثة المثيرة للإعجاب عن الإسلام في تواريـــخ ومجتمعات مختلفة، وبدل إيلاء بعض الاهتمام إلى التطورات الهائلة في مـــيدان الـــنظرية الـــنقدية، والعلوم الاجتماعية، وأبحاث العلوم الإنسانية، وفلسفة التأويل، وبدل بذل قليل من الجهد في التعرّف على ذلك الميدان الشاسع من الأدب التخييلـــي الذي ينتجه العالم الإسلامي، فإنّ بايبيس يقف بفظاظة وعلانيةً في صفّ مستشرقين كولونياليين مثل سنوك هورغرونه ومرتدّين مناصرين للكولونيالية بكلّ صفاقة مثل نايبول.

ومـــا كنـــتُ لأتحـــدث عـــن بايبيس لو لم يكن مفيداً في جِلاء بعض الأمور المـــتعلقة بخلفية الاستشراق السياسية الواسعة، التي عادةً ما تُنكَر وتُكبَت في ذلك الـــنوع من المزاعم التي يطلقها برنارد لويس، الناطق الأساسي باسم الاستشراق، والـــذي تـــبلغ بـــه الوقاحـــة حدّ فصل الاستشراق عن 200 سنة من الشراكة مع الإمبريالية الأوروبية وربطه بدلاً من ذلك مع فقه اللغة الكلاسيكي الحديث ودراسة الـــثقافة الإغريقية والرومانية القديمة. ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الخلفية الواسعة تشـــتمل علـــى اثنين من العناصر الأخرى، وأعني بهما ذلك البروز الحديث الذي برزته الحركة الفلسطينية وتلك المقاومة الجلية التي يقاوم بها العرب في الولايات المتحدة وسواها الصورة التي تُرْسَم لهم في المجال العام.

فالقضـــية الفلســـطينية ومواجهتها المصيرية مع الصهيونية، من جهة أولى، ومهـــنة الاستشراق، بوعيها الطائفي التخصصي، كنقابة من الخبراء الذين يعملون علـــى حماية حقلهم وشهاداتهم في وجه أي تدقيق خارجي، من جهة ثانية، تفسّران معاً قدراً كبيراً من العداء الذي قوبل به انتقادي للاستشراق. والمفارقات الساخرة هنا كثيرة ووافرة. فلننظر إلى مثال ذلك المستشرق الذي هاجم كتابي على رؤوس الأشهاد ثم كتب إليّ في رسالة خاصة أنه لم يفعل ذلك لأنّه يخالفني الرأي ــ فهو يشعر، على العكس، أنّ ما قلته عين الصواب ــ بل لأنّه كان مضطراً للدفاع عن شـــرف مهنته! أو فلنأخذ تلك الصلة ــ التي أقامها صراحةً اثنان من الكتّاب الذين استشـــهدت بهـــم فـــي الاستشراق، وهما رينان وبروست ــ بين رهاب الإسلام

ومعـــاداة السنـــامية. فهنا، يتوقّع المرء أن يكون كثير من الباحثين والنقّاد قد تبيّنوا الـــرابط بين الاثنين، وهو أنّ العداء للإسلام في الغرب المسيحي الحديث كان قد ســـار تاريخياً جنباً إلى جنب مع العداء للسامية، ونبع من المصدر ذاته، واغتذى مـــن نفس المورد، وأنّ نقد أرثوذكسيات الاستشراق، وعقائده الجامدة، وإجراءاته التعليمية يُسهِمُ في توسيع فهمنا للآليات الثقافية وراء معاداة السامية. غير أنّ أحداً من النقّاد لم يُقِمْ مثل هذه الصلة، بل رأوا في نقد الاستشراق فرصة سانحة للدفاع عـــن الصـــهيونية، وتأيـــيد إسرائيل، وشنّ الهجمات على الوطنية الفلسطينية. أمّا أســـباب ذلـــك فتأتي بالتوافق مع تاريخ الاستشراق، ذلك أنّ الاحتلال الإسرائيلي للضـــفّة الغربـــية وقطاع غزّة، وتدمير المجتمع الفلسطيني، والاعتداء الصهيوني المتواصـــل على الوطنية الفلسطينية هي أمور يشكّل المستشرقون طليعتها وهيئة أركانها بالمعنى الحرفي للكلمة، كما لاحظ المعلّق الإسرائيلي داني روبنشتين. ففي حيـــن كـــان المستشرقون المسيحيون الأوروبيون في الماضي هم الذين يوفرّون للـــثقافة الأوروبـــية الحجـــج اللازمة لاستعمار الإسلام وقهره، فضلاً عن الحجج اللازمـــة لتحقير اليهود وازدرائهم. نجد الآن أنّ الحركة القومية اليهودية هي التي تقـــدّم كـــادر الموظّفين الكولونياليين الذين تُطبَّق أطروحاتهم عن العقل الإسلامي والعربـــي في إدارة العرب الفلسطينيين، أولئك الذين يشكّلون أقلية مقهورة ضمن الديمقراطـــية الأوروبية البيضاء المسمّاة إسرائيل. ومما يلاحظه روبنشتين بشيء مـــن الأســـى أنّ قسم الدراسات الإسلامية في الجامعة العبرية كان قد خرّج جميع الموظفين الكولونياليين وخبراء الشؤون العربية الذين يديرون المناطق المحتلّة.

وثمـــة مفارقة ساخرة أخرى لابدّ من ذكرها بهذا الصدد: فكما اعتبر بعض الصـــهاينة أنّ مـــن واجـــبهم الدفاع عن الاستشراق ضدّ نقّاده، كذلك بذل بعض القوميين العرب مساعيَ مضحكةً في النظر إلى الجدال حول الاستشراق على أنه مؤامـــرة إمبريالـــية لـــتعزيز السيطرة الأميركية على العالم العربي. وبحسب هذا الســـيناريو البعـــيد عن الاحتمال، فإنّ نقاد الاستشراق ليسوا مناهضين للإمبريالية علـــى الإطـــلاق. بل عملاء سريين لها. أمّا النتيجة المنطقية لذلك فهي أنّ أفضل السُـــبُل لمحاربة الإمبريالية هي السكوت عن النطق بأيّ شيء نقدي يمسّها. وإنني لأسلّم بأنّ الوصول إلى هذا الحدّ يعني إحلال عالم بعيد عن المنطق ومختلّ محل

العالم الواقعي.

والحـــال، إنَّ في أساس قَدْرٍ كبيرٍ من النقاش عن الاستشراق يكمن ذلك الفهم الذي مفاده أنَّ العلاقة بين الثقافات هي علاقة علمانية أو دنيوية على نحوٍ لا براءٍ منه فضلاً عن كونها علاقة غير متكافئة. وهذا ما يصل بنا إلى النقطة التي ألمعتُ إليها للتوّ، عن الجهود العربية والإسلامية قريبة العهد، والتي هي حسنة النوايا في معظمهـــا، وإنْ كان بعضها بدفعٍ من أنظمة غير شعبية، تلك الأنظمة التي تعمل، في لفتها الانتباه إلى ادّعاءات الإعلام الغربي لدى تمثيله العرب أو الإسلام، على حـــرف الأنظـــار عـــن ضرورة التدقيق في مساوئ حكمها. ولقد جرت تطورات موازيـــة فـــي اليونســـكو، حيـــث اتّخذ الخلاف حول نظام المعلومات العالمي ــ واقـــتراحات إصـــلاحه التي تقدّمت بها حكومات عديدة من العالم الثالث والبلدان الاشـــتراكية ــ تلك الأبعاد التي تتّخذها قضية دولية كبرى. ومعظم هذه النزاعات يشـــير، أولاً، إلى واقعة أنَّ إنتاج المعرفة، أو المعلومات، والصور الإعلامية إنّما هو إنتاج موزَّع على نحوٍ غير متكافئ: بحيث تتوضّع مراكزه الأساسية فيما يُدْعى علـــى نحـــو ســـجاليّ، ومن قِبَل طرفيّ الخلاف كليهما، بالغرب المتروبولي. كما يشـــير، ثانـــياً، إلى أنَّ إدراك هذه الحقيقة المؤسفة، من جانب الأطراف والثقافات الأضـــعف، قـــد رسّخ إدراك هذه الأخيرة لحقيقة أنَّ لا وجود سوى لعالم علمانيٍ وتاريخي واحد، على الرغم من انطواء هذا العالم على العديد من الانقسامات، وأنه لا النزعة المحلية، ولا التدخّل الإلهي، ولا سُحُب الدخان الإيديولوجية بقادرة على حَجْـــبِ المجـــتمعات، والثقافات، والشعوب بعضها عن بعضها الآخر، خاصةً عن تلـــك التـــي تمـــتلك القـــوة والإرادة اللازمتين، لاختراق الآخرين لغايات سياسية واقتصادية. غير أنَّ تلك النزاعات تشير، ثالثاً، إلى أنَّ كثيراً من هذه الدول ما بعد الكولونياليـــة العاثرة ومثقفيها المخلصين قد استخلصوا النتائج الخاطئة، كما أرى، والتي مفادها أنَّ على المرء إما أن يحاول فرض السيطرة على إنتاج المعرفة في مصـــدره، أو أن يحـــاول، فـــي السوق الإعلامية عالمية النطاق، تحسين الصور الـــرائجة وتطويـــرها، وتعديلها دون القيام بأيّ شيء لتغيير الوضع السياسي الذي تنبعث منه وتغتذي عليه هذه الصور.

وعـــيوب مـــثل هذه المقاربات عيوبٌ واضحة وجليّة: فلا حاجة بالمرء لأن يخـــوض في مسائل كبعثرة مبالغ طائلة من البترودولار على مشروعات العلاقات العامـــة قصـــيرة الأجـــل، أو القمـــع المتزايد، وانتهاكات حقوق الإنسان، وعقلية العصـــابات الصريحة السائدة في كثير من بلدان العالم الثالث، كلّ ذلك باسم الأمن القومي، بل وباسم محاربة الإمبريالية الجديدة في بعض الأحيان. ما أريد الحديث فيه هو تلك المسألة الأوسع بكثير والمتعلّقة بما ينبغي القيام به، والكيفية التي يمكن بها أن نقدّم عملاً فكرياً لا يقتصر على كونه ردّة فعل أو سلبياً.

تتمـــثّل إحـــدى موروثـــات الاستشـــراق، بل وإحدى أسسه الأبستمولوجية، بالتاريخانية، أي بتلك الرؤية التي قدّمها كلٌ من فيكو، وهيغل، وماركس، ورانكه، وديلتـــي، وسواهم، ومفادها أنه إذا ما كان للبشرية أيّ تاريخ، فهو من نتاج البشر رجـــالاً ونســـاءً ويمكن فهمه تاريخياً، في حقب أو لحظات معينة، على أنه يتمتّع بوحـــدة معقـــدة لكـــنها متماســـكة. وبقدر ما يتعلّق الأمر بالاستشراق على وجه الخصوص وبالمعرفة الأوروبية للمجتمعات الأخرى بوجه عام، فإنّ التاريخانية قد عَنَتْ أنّ التاريخ الإنساني الواحد الذي يوحّد البشرية هو إمّا ذاك الذي بلغ الذروة في أوروبا أو الغرب أو ذاك الذي يُرْصد من موقع الأفضلية الذي تحتله أوروبا أو الغرب. فكلّ مالا ترصده أوروبا ولا توثّقه هو "ضائع"، إذاً، إلى أن يمكن إدماجه، فـــي وقـــت لاحق، من قِبَل العلوم الجديدة في الأنثروبولوجيا، والاقتصاد السياسي والألســـنية. بـــل إنّ هذه الاستعادة اللاحقة لما دعاه إريك وولف بالشعوب التي لا تاريخ لها هي المنطلق لتلك الخطوة المعرفية الأَلْحَق: وهي إقامة علم تاريخ العالم، الـــذي كـــان مـــن أكبر ممارسيه كلٌ من بروديل، ووالرشتاين، وبيري أندرسون، ووولف نفسه.

غير أنّ القدرة العظيمة على تناول تجارب آخر أوروبا غير المتزامنة، على حـــدّ تعبـــير أرنســـت بلوخ، ترافقت مع تهرّب مطّرد من العلاقة بين الإمبريالية الأوروبـــية وهذه المعارف المؤسَّسة والمُفْصَح عنها بصورٍ متعددة ومتنوعة. فلم يحصـــل أبـــداً أن سُلِّطَ نقد أبستمولوجي على الصلة بين تطور تاريخانية توسّعت ونَمَـــت بمـــا يكفي لأن تشتمل على مواقف متناقضة مثل إيديولوجيات الإمبريالية وانـــتقادات الإمبريالـــية، مـــن جهة أولى، وبين الممارسة الفعلية للإمبريالية التي

يتواصل من خلالها تكديس المناطق والسكّان، والسيطرة على الاقتصادات، وإدماج التواريخ ومجانستها. وإذْ نأخذ ذلك بعين الاعتبار، فلابدَّ أن نلاحظ، مثلاً، ذلك الاهتمام الهزيل أو المعدوم الذي توليه افتراضات تاريخ العالم وممارسته ــ والتي هي مناهضة للإمبريالية إيديولوجياً ــ إلى تلك الممارسات الثقافية، مثل الاستشراق أو الإثنوغرافيا، القريبة من الإمبريالية من حيث النَّسب، تلك الإمبريالية التي تربطها بتاريخ العالم على مستوى الواقع الجينالوجي علاقة الأب بابنه. ومن هنا كان التشديد في تاريخ العالم بوصفه فرعاً علمياً على الممارسات الاقتصادية والسياسية، التي تحددها عمليات كتابة تواريخ العالم على أنها منفصلة ومختلفة بمعنى ما عن تلك المعرفة التي يقدّمها عنها تاريخ العالم، فضلاً عن كونها غير متأثّرة بها. أمّا النتيجة اللافتة المترتبة على ذلك فهي أنَّ نظريات التراكم على صعيد عالمي، والنظام العالمي الرأسمالي، وأصول الاستبداد (!) تعتمد على ذات المتبصّر والمراقب التاريخاني الذي كان مستشرقاً أو رحّالة كولونيالياً قبل ثلاثة أجيال؛ (2) تعتمد أيضاً على ترسيمة تاريخية عالمية إدماجية ومُجانِسَة تمتصّ إليها التطورات، والتواريخ، والثقافات، والشعوب غير المتزامنة؛ و(3) تقمع وتسدّ الطريق أمام الانتقادات الأبستمولوجية الممكنة التي تطال الأدوات المؤسساتية، والثقافية، والأكاديمية التي تربط الممارسات الإدماجية التي يمارسها تاريخ العالم بمعارف مجتزأة مثل الاستشراق، من جهة أولى، وبالهيمنة "الغربية" المتواصلة على العالم "المحيطي" غير الأوروبي، من جهة ثانية.

والمشكلة مرّة أخرى هي التاريخانية وما استوطنها من كَوْنَنَة وتأكيدٍ ذاتي على صحّتها وسريان مفعولها. ولقد قطع الكتاب الصغير والمهمّ الذي وضعه بريان ترنر، ماركس ونهاية الاستشراق، شوطاً بعيداً في تشظية، وتشريح، وتخليع، وبعثرة ذلك النطاق التجريبي الذي تغطيه التاريخانية الكونية في الوقت الراهن. وما يشير إليه ترنر، لدى مناقشة المعضلة الأبستمولوجية، هو الحاجة إلى المضيّ أبعد من الاستقطابات والتضادات الثنائية في الفكر الماركسي التاريخاني (العفوية ضدّ الحتمية، المجتمع الآسيوي ضد المجتمع الغربي، التغيّر ضدّ الركود) بغية خلق نمط جديد من تحليل الموضوعات التعددية، بوصفها المقابل للموضوعات الواحدية المفردة. وبالمثل، فقد أُحرِز تقدّم كبيرٍ، في سلسلة من الدراسات المُنتَجَة في عدد من الحقول التي غالباً ما تؤخذ منفصلةً على الرغم من

تـــرابطها، وذلك في سياق التحطيم، والتصفية، وإعادة التصوّر المنهجية والنقدية التـــي خضـــع لهـــا ذلك الحقلّ الواحديّ الذي ظلّ محكوماً إلى الآن بالاستشراق، والتاريخانية، وما يمكن أن ندعوه بالكونية الجوهرانية.

ولســـوف أضـــرب أمـــثلة على عملية التصفية والإطاحة هذه. غير أنَّ من الضـــروري القول مباشرةً إنَّ هذه العملية ليست منهجية صرفاً ولا هي قائمة على ردّة الفعـــل وحدها من حيث مقصدها. فأنت لا تردُّ، مثلاً، على الاقتران الطغياني بين القوة الكولنيالية والاستشراق الأكاديمي بأن تكتفي في محاربته باقتراح تحالف بين العواطف ذات النزعة المحلية وضرب من ضروب الإيديولوجيا المحلية التي تعـــزّزها. فهـــذا هـــو الفخّ الذي وقع فيه كثير من نشطاء العالم الثالث والنشطاء المعاديـــن للإمبريالية في تأييدهم للكفاح الإيراني والفلسطيني، حيث وجدوا أنفسهم إمّـــا خاليّ الوفاض من كلّ ما يمكن أن يُقال عن نظام الخميني وأفعاله أو لائذين، في الحالة الفلسطينية، بكليشيهات ثورية أكل الدهر عليها وشرب وبنزعة كفاحية مســـلحة رفضوية بعد الهزيمة الساحقة في لبنان. كما لا يمكنك أن تكتفي بتكرار البلاغة الماركسية أو التاريخية العالمية القديمة، التي يقتصر إنجازها المشكوك فيه علـــى إعادة ترسيخ السطوة الفكرية والنظرية القديمة التي كانت تتمتّع بها النماذج المفاهيمـــية القديمـــة، التي غدت الآن خارج الموضوع ومتصدّعة على المستوى الجينالوجـــي. لا: أحْسُـــبُ أنَّ عليـــنا أن نفكر سياسياً ونظرياً في آنٍ معاً، فنضع المشـــكلات الأساســـية فـــي إطار ما تدعوه نظرية فرانكفورت بالسيطرة وتقسيم العمـــل. علينا أن نواجه أيضاً مشكلة غياب البعد النظري، الطوباوي، والتحرري فـــي التحليل. فليس بوسعنا أن نتقدّم ما لم نبدّد مادة التاريخانية ونحوّلها إلى مساعٍ معرفـــية مختلفة تماماً، وهو الأمر الذي نعجز عنه ما لم ندرك أنَّ ما من مشروع معرفي جديد يمكن أن يقوم إنْ لم يقاوِم سيطرة المنظومات التاريخانية والنظريات الاختزالية، البراغماتية، أو الوظيفية وما تتّسم به من نزعة تخصصية احترافية.

والحال، أنَّ هذه الأهداف هي أقلّ صعوبةً مما تبدو عليه في وصفي لها. ذلك أنّ إعـــادة النظر في الاستشراق غدت وثيقة الارتباط بكثيرٍ من النشاطات الأخرى التـــي سبق أن أشرت إليها، والتي صار من الضروري أن نفصح عنها بمزيد من التفصـــيل. وعلـــى ســـبيل المثال، فإنّ بمقدورنا الآن أن نرى أنَّ الاستشراق هو

ممارســـة مـــن ذات النوع الذي نجده لدى الهيمنة الذكورية، أو البطريركية، في المجـــتمعات المتروبولية: فكثيراً ما وُصِفَ الشرق بأنه أنثوي، وكثيراً ما وُصِفَت ثـــرواته بأنها خصبة، وكثيراً ما اعتُبِرَتْ رموزه الأساسية على أنها المرأة الشبقة، والحـــريم، والحـــاكم المســـتبد إنّما المثير للإعجاب. وعلاوةً على ذلك، فقد أُلزِم الشـــرقيون الصمت والإنتاج الوافر بلا حدود، شأنهم في ذلك شأن ربّات المنازل. ومعظـــم هـــذه المواد مرتبط بوضوح بأشكال التباين والتفاوت الجنسي، والعرقي، والسياســـي التـــي تشـــكّل أساس الثقافة الغربية الحديثة السائدة، والتي ألقى عليها الضوء كل من النسويين، ونقّاد الدراسات السوداء، والنشطاء المعادين للإمبريالية علـــى التوالـــي. فحِيـــن تقـــرأ، مـــثلاً، دراســـة ساندرا غيلبرت الألمعية لرواية رايدرهوغارد هي تدْرك ذلك التوافق الدقيق بين الجنسيّة الفيكتورية المقموعة في الوطن، وخيالاتها الفانتازية الجامحة في الخارج، والقبضة القوية التي أمسكت بها الإيديولوجيا الإمبريالية المخيّلة الذكرية في القرن التاسع عشر. وبالمثل، فإنَّ عملاً مثل الجماليات المانويّة لعبد الجان محمد الذي يتحرّى العوالم الفنية المتوازية إنّما المنفصـــلة علـــى نحوٍ لا رجعة عنه في القصص البيضاء والسوداء التي تتناول المكـــان ذاته، إفريقيا، هو عمل يشير إلى أنَّ المنظومة الإيديولوجية الصلبة تفعل فعلهـــا حتى في الأدب التخييلي وتحت سطحه الذي يبدو أكثر حرية من سواه. أمّا فـــي دراسة كدراسة بيترغران الجذور الإسلامية للرأسمالية، المكتوبة من منطلق العـــداء للإمبريالية والعداء للاستشراق، والتي تبلغ في تدقيقها حدّ الوسوسة وتتخذ موقفـــاً تاريخياً بالغ التشكيك، فيمكن للمرء أن يحسّ بذلك النطاق الشاسع والخفيّ مـــن الجهد والإبداع الإنساني الكامن تحت السطح الاستشراقي المتجمّد الذي سبق أن ألقى عليه خطاب التاريخ الاقتصادي الإسلامي أو الشرقي بِبِسَاطِه.

وثمـــة كثير من الأمثلة الأخرى لتحليلاتٍ ومشاريعٍ نظرية قامت انطلاقاً من دوافـــع مماثلـــة لتلك التي تدفع النقد المناهض للاستشراق. وجميع هذه المشاريع تتصـــف بطبيعة تدخّلية، بمعنى أنّها تتوضع عند عقد التقاطع والتواشجِ المكشوفة الهشّـــة فـــي الخطابات الأكاديمية الرائجة حيث لا يكتفي أيّ منها بأقل من طرح مشروعات معرفية جديدة، وأطر جديدة لممارسة العلوم الإنسانية نشاطها، ونماذج نظـــرية جديـــدة تقلب، أو تغيّر جذرياً على الأقل، تلك المعايير والأطُر المفاهيمية الســـائدة. ويمكـــن للمرء أن يورد هنا تلك الجهود المضنية التي تمثّلُ لها عمليات

الســـبر التي قامت بها ليندا نوكلين في الإيديولوجيا الاستشراقية في القرن التاسع عشر على النحو الذي عملت فيه ضمن سياقات تاريخ الفن الكبرى؛ وإعادة البناء الهائلـــة التـــي قـــام بها حنا بطاطو للميدان الذي يتجلى فيه سلوك الدولة العربية الحديـــثة السياســـي؛ وتفحّـــص ريموند وليامز الدؤوب لبنى الشعور، وجماعات المعـــرفة، والـــثقافات الطارئـــة والبديلة، وأنساق الفكر الجغرافي (كما في كتابه المرموق الريف والمدينة)؛ وتناول طلال أسد للانئسار الأنثروبولوجي الذاتي في أعمال منظّرين كبار، ودراساته هو نفسه في هذا الحقل؛ وصياغة إريك هوبسباوم الجديدة لـــ"ابتداع التراث" أو الممارسات المُبتَدَعَة التي يدرسها المؤرّخون بوصفها مؤشّـــراً حاسماً ليس على براعة المؤرّخ وحسب، وإنما، وهو الأهم، على ابتداع أمـــم جديـــدة ناشـــئة؛ والعمل الناجم عن إعادة تفحّص الثقافة اليابانية، والهندية، والصـــينية مـــن قِـــبَل باحثين مثل ماساوميوشي، وإقبال أحمد، وطارق علي، وأ. ســـيفاناندان، وروميـــلا ثابار، والمجموعة المتحلّقة حول راناجيت جحا (دراسات الـــتابع) وغاياتري سبيفاك، والباحثين الشباب مثل هومي بابا وبارتا ميتر؛ وإعادة النظر الحيوية وواسعة الخيال التي يقوم بها نقّاد الأدب العرب ــ جماعتي فصول ومواقـــف، والياس خوري، وكمال أبو ديب، ومحمد بنيس، وسواهم ــ مستهدفين إعـــادة تعـــريف وإنعاش بنى التراث الأدبي العربي الكلاسيكية الرفيعة، وبموازاة ذلـــك، تلـــك الأعمـــال واسعة الخيال لدى خوان غويتسولو وسواه، ممَّن يضعون قصصـــهم ونقدهـــم عـــن ســـابق عمد وإصرار ضدّ القوالب والتمثيلات الثقافية المســـيطرة في هذا الحقل. ومما يجدر ذكره هنا، علاوةً على ما سبقن تلك الجهود الـــرائعة التـــي قامـــت بها نشرة الباحثين الأسيويين المعنيين، وحقيقة أنَّ باحثَين أميركييـــن، أحدهما مختصّ بالشؤون الصينية (بنجامين شوارتز) والآخر مختصّ بالشـــؤون الهـــندية (آنسلي إمبري)، قد توقفا مرتين مؤخراً، بصورة جدّية، وفي خطبتـــيهما الرئاســـيتين، أمام ما يعنيه نقد الاستشراق بالنسبة لحقليهما، خاصة أنَّ مـــثل هـــذا الوقـــوف الصريح لا يزال مرفوضاً لدى الباحثين في شؤون الشرق الأوســـط. وثمّـــة علـــى الدوام ذلك العمل الذي ينجزه نعوم شومسكي في الحقلين السياسي والتاريخي، والذي يشكّل مثالاً على الراديكالية المستقلة والصرامة التي لا تعـــرف المهادنـــة مما لا نظير له عند أي أحد آخر في أيامنا؛ وكذلك، في مجال الـــنظرية الأدبـــية، تلك الضروب القوية من الإفصاح النظري عن نموذج للسرد

اجتماعي، بأعرض وأعمق معنى لهذه الكلمة الأخيرة، مما قدّمه فريدريك جيمسن؛ وتوصّل ريتشارد أولمان بصورة تجريبية إلى تحديد الامتيازات، التي يتمتع بها التراث المُكَرَّس في عمله الأخير؛ والمنظورات التنقيحية الإمرسونية التي صاغها ريتشارد بواريه في سياق نقده للأيديولوجيات التكنولوجية والتخييلية والثقافية المعاصرة؛ والدراسات التي تناول فيها ليو بيرساني نِسَب ومعدلات الشدّة والدافع من حيث التبعثر وإعادة التوزيع.

وما ينبغي عليَّ القيام به، في الختام، هو محاولة جمع هذه الجهود معاً في مسعىً مشترك يمكن أن يترك بالغ الأثر على ذلك المشروع الأوسع الذي لا يشكّل نقد الاستشراق سوى جزء منه وحسب. فنحن نلاحظ، أولاً، تعددية الجمهور والدوائر؛ فلا أحد من الأشخاص أو الأعمال التي ذكرتها يزعم العمل لمصلحة جمهور واحد هو الوحيد الجدير بالاعتبار، أو لمصلحة حقيقة واحدة غالبة وقاطعة، حليفة للعقل، والموضوعية، والعلم الغربي (أو الشرقي). فعلى العكس من ذلك، نلاحظ هنا تعددية الميادين، والتجارب، والدوائر، وكل دائرة ومصالحها المُعترَف بها (لا المُنْكَرَة عليها). وأمنياتها السياسية، وأهدافها المحدّدة. وجميع هذه الجهود تنطلق ممّا يمكن أن ندعوه بالوعي المتحرر من المركز، ذلك الوعي الذي لا يقلّل تحرره هذا من نفاذه ونقده، والذي غالباً ما يكون بعيداً عن الكيانية والنسقية بل مناهضاً لهما في بعض الحالات. والنتيجة هي أنه بدلاً من التماس الوحدة المشتركة باللجوء إلى مركزٍ ذي سلطة متسيّدة، وانسجام منهجي، وتكريسٍ مُعْتَمَد، وعلم، توفّر هذه الجهود إمكانية قيام أسس مشتركة تجمع فيما بينها. ولذا، فهي خطط نشاط وممارسة، وليست طوبوغرافيا أحادية تقودها رؤية جغرافية وتاريخية متموقعة في مركز معروف من مراكز القوة المتروبولية. ولنلاحظ، ثانياً، أنَّ هذه النشاطات والممارسات هي علمانية، وهامشية، ومعارِضة عن وعي مقارنةً بالمنظومات السائدة، والسلطوية عموماً، التي راحت تحرّض عليها. وأنّها، ثالثاً، سياسية وعملية بقدر ما تستهدف ــ دون أن تُفْلِح بالضرورة ــ وضع حدٍّ لتلك المنظومات المعرفية المسيطرة، القهرية. ولا أحسب أنَّ من المبالغة القول إنَّ المغزى السياسي للتحليل، بالصورة التي يُجرى فيها في كلّ هذه الحقول، هو مغزى تحرري على نحوٍ متّسق ومُبَرمَج نظراً لحقيقة قيامه، بخلاف الاستشراق، ليس على نهائيةِ وانغلاقِ معرفةٍ قديمةٍ أو قيّمةٍ على سواها، وإنما على تحليل

استقصـــائي منفتح، على الرغم من أنَّ مثل هذه التحليلات ــ التي غالباً ما تكون عسيرة وعميقة ــ قد تبدو في الحساب الأخير تسكينية بصورة تنطوي على مفارقة وتـــناقض. وينبغي لنا أن نستذكر الدرس الذي قدّمه ديالكتيك أدورنو السلبي، وأنّ نـــنظر إلـــى التحلـــيل على أنّه في معناه الأكمل تحليلٌ تفكيكي، وطوباوي، وضد التيار.

وتـــبقى تلـــك المشكلة التي تتعقّب كلَّ عملٍ فكري مكثَّف، وراضٍ عن ذاته، ومحلـــي محـــدود، ألا وهـــي مشكلة تقسيم العمل، التي هي عاقبة ضرورية لذلك التشـــييء والتسليع، اللذين كان جورج لوكاش أول وأقدَر من قام بتحليلهما في هذا القرن. فهذه هي المشكلة، التي طرحتها ميراجيلن بحساسيةٍ وذكاءٍ بصدد دراسات النساء، وهي ما إذا كان بمقدور الجماعات التابعة ــ كالنساء، والسود وهلمجرا ــ لـــدى تحديـــد الانتقادات المناهضة للسيطرة والعمل من خلالها، أن تحلّ معضلة حقول التجربة والمعرفة المستقلة والمنفصلة التي تبرز كنتيجةٍ أو عاقبة. فهنا يمكن أن يظهر ضَرْبٌ مزدوج من النزعة الإقصائية التملكية: إحساس المرء الناجم عن الـــتجربة بأنّه داخلها وينزع إلى الإقصاء (وحدهن النساء يقدرن على الكتابة عن النســـاء ومن أجلهن، ووحده الأدب الذي يتناول النساء أو الشرقيين بصورة حسنة هـــو الأدب الجيد)، وثانياً، إحساس المرء الناجم عن المنهج بأنّه في داخله وينزع إلى الإقصاء (وحدهم الماركسيون، المعادون للاستشراق، النسويون يقدرون على الكتابة عن الاقتصاد، الاستشراق، أدب النساء).

هـــذا ما وصلنا إليه الآن، عتبة التشظي والتخصّص، اللذين يفرضان أشكال ســـيطرتهما ضـــيقة الأفق وما لديهما من نزعة دفاعية سريعة الغضب، أو شفير أطـــروحةٍ كبرى أحسب، شخصياً، أن تتمكّن بسهولةٍ بالغة من محو ما قدّمته هذه المعـــارفُ المضـــادة إلى الآنِ من مكاسب ووعيٍ معارِضٍ. وثمّة إمكانيات كثيرة تطرح نفسها؛ وسأختم مقتصراً على تعدادها وحسب. حاجةٌ إلى المزيد من تخطي الحـــدود، إلـــى مزيدٍ من النزعة التدخّلية في النشاط العابر للفروع العلمية، وإلى وعي مركز بالوضع ــ السياسي، المنهجي، الاجتماعي، التاريخي ــ الذي يجري فـــيه العمـــل الفكـــري والثقافي. التزامٌ سياسي ومنهجي صافٍ بتعرية منظومات الســـيطرة التي بسببٍ من المحافظة عليها معاً وبصورة جمعيّة لابدّ أن تُقارع معاً

وبصورة جمعية، عن طريق الحصار المشترك، وحرب المناورة، وحرب المواقع، إذا مـــا جاز لنا أن نستخدم عبارات غرامشي هذه مع شيء من التحوير. وأخيراً، إحساسٌ أشدُّ حدّةً بدور المثقف سواء في تحديد سياقٍ ما أم في تغييره، ذلك أنه من غـــير ذلـــك، لـــن يكون نقد الاستشراق، كما أرى، أكثر من سلوى عابرة سريعة الزوال.

□□